بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. والصلاة والسلام على البشير النذير، والسراج المنير، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

فقد أطلعني الأخ الكريم الأستاذ محمود عوض على هذه الخطبة التي أذيعت من مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في سنة 1416هـ، وقد تناولت فيها سيرة علم من أعلام تاريخنا الإسلامي المجيد، وإمام من أئمة الهدى والتجديد، وهو عمر بن عبد العزيز، الذي اعتبره علماء أمتنا خامس الراشدين.

وأمتنا أحوج ما تكون إلى إبراز هذه المعالم الهادية، وهذه النقاط المضيئة في تاريخها، بعد أن شوه هذا التاريخ، وظن الظانون أنه ظلمات بعضها فوق بعض.

ولا أحسب أمة حفل تاريخها بأعلام الهدى، ومصابيح الدجى، وأئمة التقى، وحملة رسالة الحق، ودعوة الخير. مثل هذه الأمة.

ولكن هذه الأمة ابتليت بالمتطاولين على أمجادها، المشككين في أصالتها وحضارتها، المرددين لدعاوي خصومها، حتى تطاولوا على مثل عمر بن

عبد العزيز، وهو قمة من قممها الشامخة.

لهذا سرني ما قام به الأخ محمود عوض من إفراغ هذه الخطبة وكتابتها والتعليق عليها، حتى إنه صاغ بعض وقائعها من مصادرها، وكنت أكتفي بروايتها غالبا بالمعنى والمضمون، فجزاه الله خيرا.

وقد رأيت أن يضاف إليها «فتوى» كنت ذكرتها في كتابي «فتاوى معاصرة» الجزء الثاني، رددت فيها على ذلك العلماني الجريء الذي زعم أن ابن عبد العزيز كان جاهلا بالسياسة والإدارة!!..

شكري للأخ محمود، ولنادي الريان، ونفع الله بهذه الرسالة كل من يقرؤها. اللهم آمين.

5 من رجب 1417هـ

الموافق 16 من نوفمبر سنة 1996م

يوسف القرضاوي

بين يدي الخطبة

قال مالك بن أنس عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه قال: «الخلفاء أبو بكر، والعمران»، فقيل له: «أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الآخر؟» قال: «يوشك إن عشت أن تعرفه»، يريد عمر بن عبد العزيز، وفي رواية أخرى عنه أنه قال: «هو أشج بني مروان»[1]، وروى البيهقي والحاكم والترمذي وغيرهم عن نافع قال: بلغنا أن عمر بن الخطاب قال: «إن من ولدي رجلا بوجهه شجان يلي فيملأ الأرض عدلا، قال نافع: ولا أحسبه إلا عمر بن عبد العزيز»[2]، وهكذا جاءت الآثار والأخبار تبشر بعمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الذي ولد في حلوان وهي ضاحية من ضواحي القاهرة عاصمة مصر الآن[3] في سنة إحدى، وقيل ثلاث وستين للهجرة، وأبوه هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ابن عبد شمس.

ولي عمر الخلافة فملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا، وعما قليل سوف نقرأ في هذه الرسالة تفصيل ذلك، ولكننا نشير في هذه المقدمة إلى عدة نقاط منها ثناء الناس عليه واحترامهم له بعد وفاته رضي الله عنه، ومن ذلك ما يروى أنه جاء رجل إلى هشام بن عبد الملك فقال: «يا أمير المؤمنين إن عبد الملك أقطع جدي قطيعة، فأقرها الوليد وسليمان، حتى إذا استخلف عمر رحمه الله نزعها»، فقال له هشام: «أعد مقالتك»، فأعادها مثل ما قال، فقال

---

(1) «البداية والنهاية» لابن كثير (225/9)، وأشج: إذ ضربته دابة من دواب أبيه فشجته.
(2) «البداية والنهاية» لابن كثير (221/9).
(3) ذكر هذا السيوطي في «تاريخ الخلفاء» (ص183) ط. دار الكتب العلمية -بيروت.

هشام: «والله إن فيك لعجبًا إنك تذكر من أقطع جدك القطيعة، ومن أقرها فلا تترحم عليه، وتذكر من نزعها فتترحم عليه!، وإنا قد أمضينا ما صنع عمر رحمه الله عليه»[4]، وهذا يدل على مكانة عمر في نفوس الناس وشيوع احترامه فيهم، ولو كان غير ذلك لما ترحم عليه مثل هذا الرجل.

ومنها: تلك الشهادة من بني أمية على لسان ابن عمه مسلمة بن عبد الملك، وبنو أمية هم أهله الذين بدأ بهم من بين الناس عدله وحكمه الراشد فشدد عليهم ورد أموالهم إلى بيت المال كما سيأتي، قال مسلمة لعمر: «رحمك الله، لقد لينت منا قلوبا كانت قاسية، وزرعت في قلوب الناس لنا مودة، وأبقيت لنا في الصالحين ذكرا»[5]، وهي شهادة تدل على الإنصاف في ذلك الوقت الذي عز فيه الإنصاف من قبل بني أمية وهم من سقوا أبا حفص - وهذه كنية عمر بن عبد العزيز- السم.

ومنها أيضا: أن هذا العصر الذي نحن فيه يكاد يجمع أهل العلم فيه والمفكرون، والصالحون والمؤمنون العالمون والعاملون، على أن ما يحتاج إليه المسلمون لينهضوا هو قيادة تعمل عمل العمرين وأبي بكر قبلهما، ولذلك فعرض مثل هذه النماذج الراشدة المهدية، على منابرنا هو من قبيل التربية الواعية التي تحبب إلينا الهداة وعملهم.

ومنها أخيرا: أنه لا يقدر على عرض سير الهداة الراشدين إلا من آتاه الله العقل الراشد والقلب الفقيه، فيغوص في سيرهم ويستخرج دروس الرشد

---

(4) ابن الجوزي «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (ص132) بتصرف ط. دار الكتب العلمية –بيروت.

(5) ابن الجوزي «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (ص320).

والهداية فيها، ثم يقدمها إلى الأجيال المرباة سهلة يسيرة لا تمتنع على الأتباع، وتحث فيهم عزائم الرشد على عمل الخير، ومن هؤلاء الفقهاء العالمين: علامتنا الشيخ يوسف القرضاوي –حفظه الله- الذي اخترنا له تلك الخطبة المنبرية القيمة عن عمر بن عبد العزيز، وأفرغناها كتابة نرجو من ورائها النفع لمن قرأها والتربية لمن فاته درسها.

وما كان لهذا الدرس أن يبلغ مداه لولا حرص إدارة نادي الريان الرياضي ممثلة في قسم النشاط الديني بالنادي على إخراج وطباعة هذه الرسالة القيمة، وإهدائها للمسلمين، آملين أن ينفع الله بها حيث وقعت، وأن يهدي بها كل ضال، وأن يزداد بها الذين اهتدوا هدى، والله من وراء القصد.

غرة رجب 1417هـ

الموافق 12 من نوفمبر سنة 1996م محمود أحمد عوض

عمر بن عبد العزيز مجدد المائة الأولى

قرأت في مجلة علمانية لكاتب علماني ممن يزعمون أنهم من كتاب التنوير –وهم كتاب التضليل والتظليم- مقالة يهاجم فيها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ويزعم أنه تسبب في خراب الدولة الإسلامية، ويفضل عليه الحجاج ابن يوسف الثقفي، فعجبت من هذا الضلال البعيد!!..

عمر بن عبد العزيز أحد أئمة الهدى، وأحد النماذج المنيرة الخيرة في تاريخ هذه الأمة، ذكر علماء هذه الأمة أنه خامس الراشدين[6]، وأنه ممن ينطبق عليهم قول النبي صلى الله عليه وسلم : «**... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ...**»[7] أي: تمسكوا وتشددوا في التمسك بها، فعمر من الراشدين المهديين، وقد أجمع علماء هذه الأمة على أنه هو الذي جدد أمر الدين في المئة الأولى، وأنه بالإجماع ينطبق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»[8].

(6) روى عن سفيان الثوري وأبي بكر بن عياش والشافعي وغير واحد، قال ابن كثير: «وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين» «البداية والنهاية» (225/9) ط. دار إحياء التراث العربي –بيروت.

(7) رواه أبو داود عن العرباض بن سارية، والترمذي وقال: «حديث حسن صحيح»، ورواه أيضا الإمام أحمد وابن ماجه من طرق أخرى.

(8) أورده الألباني في «الصحيحة» تحت رقم (599)، ذكر ابن كثير رحمه الله: «قال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل فيما ذكره ابن الجوزي وغيره: أن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المئة الأولى، وإن كان هو أولى من دخل في ذلك وأحق

فعمر بن عبد العزيز مجدد المئة الأولى، وهذا ما نشهده ونلمسه في سيرته رضي الله عنه، فقد استطاع في مدة حكمه القصيرة وهي سنتان وخمسة أشهر وجملة أيام، استطاع أن يضع من المبادئ، وأن يحيي من سنن العدل، وأن يميت من سنن الجور، وأن يرد من المظالم، وأن يقر من الحقوق، ما أحدث به ثورة في الحكم الإسلامي، وفي هذه المدة القصيرة استطاع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن يكون من الأئمة الراشدين حقا، وإنما أهله لذلك استعداد كريم، ونفس مؤمنة، وقلب يخاف الله ززز، وعين تبكي أبدا من خشية الله ععع، كما تقول زوجته فاطمة: «ما رأيت أحدا أكثر صلاة وصياما منه، ولا أحدا أشد فرقا من ربه منه، وكان يصلي العشاء ثم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه، ومع هذا التعبد كان يناجي ربه فيقول: اللهم إن عمر ليس أهلا أن ينال رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر!!».

* * *

= لإمامته وعموم ولايته وقيامه واجتهاده في تنفيذ الحق» «البداية والنهاية» (232/9).

جده لأمه عمر بن الخطاب

وعمر بن عبد العزيز أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب(9)، وأمها زوجة عاصم بن عمر بن الخطاب، هي الابنة التي مر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فوجدها تتحاور مع أمها، تقول الأم: «يا بنية قومي فشوبي اللبن بالماء»، فتقول البنت: «يا أماه أما سمعت منادي أمير المؤمنين أنه نادى: أن لا يشاب اللبن بالماء»؟ وتقول الأم: «وأين أنت من مناديه الساعة»؟ فتقول البنت: «إذا لم يرني مناديه ألم يرني رب مناديه»؟ فبكى عمر رضي الله عنه، فلما أصبح دعا بالمرأة وبابنتها وسأل: هل لها زوج؟ فقالت: «ليس لها زوج»، فقال: «يا عاصم تزوجها»، فتزوجها فجاءت بابنة، فحملت بعمر بن عبد العزيز(10)، ولذلك فعمر ابن عبد العزيز له نصيب من جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقد حاول منذ ولي الخلافة أن يعرف سيرة عمر، وقضاء عمر، وأحكام عمر، وهدي عمر حتى يتخذه نبراسا وقدوة، وكان يستدل في ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**»(11)، يقول مالك ابن أنس رحمه الله قال عمر بن عبد العزيز «سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سننا الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر من خالفها، من

---

(9) ذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» أن اسمها ليلى، انظر: (217/9).

(10) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (302/6) ط. دار الثقافة –بيروت.

(11) رواه أبو داود في «الإمارة»، وابن ماجه في «المقدمة»، والإمام أحمد في «مسنده»، والترمذي في «المناقب عن ابن عمر» وقال: حديث حسن غريب.

اهتدى بها فهو المهتدي، ومن استنصر بها فهو المنصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا»، وروي عن مالك أنه قال: «أعجبني عزم عمر على ذلك» يعني: هذا الكلام[12].

* * *

(12) انظر «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (ص263) ط. دار المعرفة –بيروت.

نشأته رضي الله عنه

نشأ عمر بن عبد العزيز نشأة إسلامية حيث كان البيت الأموي ينشأ أبناؤه نشأة أخرى، ولكن الله وجهه وجهة حسنة منذ شبابه، فقد أراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام، فقال: «يا أبة أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك»؟ قال: «وما هو»؟ قال: «ترحلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهائها، وأتأدب بآدابهم»، فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة، وأرسل معه الخدام، فقعد مع مشايخ قريش وتجنب شبابهم، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره، فلما مات أبوه عبد العزيز بن مروان، أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوجه بابنته فاطمة، وكانت قد اشتهرت بالحسن والجمال، وهي التي قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة والخليفة جدها   أخت الخلائف والخليفة زوجها

ولم يتم لأحد غيرها ذلك فهي بنت خليفة وحفيدة خليفة وزوجة خليفة وإخوتها أربعة من خلفاء بني أمية.

* * *

عمر واليًا على المدينة

وحينما تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة بعد أبيه، عامل عمر بما كان يعامله به أبوه وولاه المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين، وقد بنى في مدة ولايته هذه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ووسعه وأدخل فيه قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كان في هذه المدة من أحسن الناس معاشرة، وأعدلهم سيرة، وكان أعوانه وجلساؤه هم الفقهاء، عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن سليمان، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر، وخارجة بن زيد بن ثابت، وكان لا يخرج عن قول سعيد بن المسيب، وقد ثبت من غير وجه عن أنس بن مالك قال: «ما صليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى» – يعني: عمر ابن عبد العزيز- حين كان واليًا على المدينة(13).

* * *

(13) لمزيد الفائدة انظر: «البداية» لابن كثير (219/9) ط. مؤسسة التاريخ العربي.

عمر وزيرا لابن عمه سليمان

ولما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة كان عمر ابن عبد العزيز وزير صدق له يشير عليه بأحسن المشورة، وينصحه بأفضل النصائح، نظر سليمان إلى الحجيج في الموسم فقال لعمر بن عبد العزيز: «ألا ترى هذا الخلق الذي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يسع رزقهم غيره؟!»، فقال عمر: «يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غدًا خصماؤك عند الله!» فبكى سليمان بكاءً شديدًا ثم قال: «بالله أستعين».

وقد كان من حسنات سليمان بن عبد الملك –وهو من أمثل خلفاء بني أمية- أنه ولى العهد من بعده عمر ابن عبد العزيز، فكان هذا مضافًا إلى ميزان حسناته، يقول محمد بن سيرين: «رحم الله سليمان بن عبد الملك: افتتح خلافته بخير، وختمها بخير، افتتحها بإجابة الصلاة لمواقيتها، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز».

* * *

عمر بن عبد العزيز أميرًا للمؤمنين

لما حضر الموت سليمان بن عبد الملك استشار رجاء ابن حيوة –وكان وزير صدق لبني أمية- فيمن يولى، فقال رجاء: «إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولي على المسلمين الرجل الصالح»، وقال سليمان: «فكيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟» فقال رجاء بن حيوة: «أعلمه والله خيرا فاضلا مسلما يحب الخير وأهله، ولكن أتخوف عليه إخوتك ألا يرضوا بذلك»، فقال سليمان: «هو والله على ذلك»، وأشار رجاء أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولي العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضي بذلك بنو مروان(14)، وقد كان الأمر كما أشار رجاء.

ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة وما كان يطمع فيها، ولكن هكذا قدر الله ززز، فلما جاءه بمراكب الخلافة –وهي الخيول الحسان الجياد المعدة لها- أبى أن يركبها، وركب دابته وانصرف مع الناس، حتى أتوا دمشق، فلما مالوا به نحو دار الخلافة قال: «لا أنزل إلا في منزلي، حتى تفرغ دار أبي أيوب»، يقصد سليمان –فاستحسنوا ذلك منه، وأمر برد أثمان الجياد، وأمتعة الخلافة وأمواله وأملاكه، وكانت كثيرة- إلى بيت مال المسلمين، حتى إنه رد فص خاتم كان في يده وقال: «أعطانيه الوليد من غير حقه»، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملبس، والمأكل، والمتاع، حتى إنه ترك التمتع بزوجته الحسناء فاطمة بنت عبد الملك، ويقال إنه رد جهازها إلى بيت المال.

---

(14) لمزيد بيان انظر: «الطبري»، و«مروج الذهب»، و«العقد الفريد» (276/3).

وقد كان دخله قبل الخلافة أربعين ألف دينار، فترك ذلك كله، حتى لم يبق له دخل سوى أربعمئة دينار في كل سنة، ونحن نرى الناس يتولون الحكم فقداء، فيخرجون منه أثرياء أصحاب ثروات طائلة، وأرصدة في البنوك في الداخل وفي الخارج، ولكن عمر بن عبد العزيز كان ثريا من أثرياء بني أمية، فإذا به يصبح بعد الحكم والخلافة فقيرا، وهذا هو التورع عن أي شيء فيه شبهة.

إن الذي أفسد الحياة الإسلامية قبل عمر بن عبد العزيز هو نهب الأموال العامة، والطمع فيها، وأن كل إنسان يريد أن يكون لنفسه ثروة، وخاصة من أفراد بيت بني أمية، ولكن عمر بن عبد العزيز اعتبر هذه الأموال «مظالم» ورد هذه المظالم إلى أهلها، فمن عرف له حق عند أمير من أمراء بني أمية، فمن حقه أن يشكو، ومن حق شكواه أن تسمع، ومن حق ظلامته أن ترد، وما لم يعرف له صاحب، فليؤخذ ويوضع في بيت مال المسلمين، وهذه هي سياسة عمر بن عبد العزيز.

* * *

مع ابنه عبد الملك

وقد كان له ابن متحمس من الأتقياء الورعين اسمه عبد الملك أشبه بشباب الصحوة الإسلامية المتوثبين المتوقدين في عصرنا، فجاء يقول لأبيه: «يا أمير المؤمنين ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟ فوالذي نفسي بيده ما أبالي أن لو غلت بي وبك القدور»، قال عمر: «وحق هذا منك؟» قال: «نعم والله»، قال عمر: «الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على أمر ديني، يا بني لو باهت الناس بالذي تقول لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها لم أجد بدا من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف، يا بني إني أروض الناس رياضة الصعبة، فإن أبطأ بي عمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تعد على منيتي فقد علم الله الذي أريده»[15]، يعني أنه رضي الله عنه لا يريد أن يستخدم القوة وإن كان يملكها لحمل الناس على الحق، وإنما يأخذهم بالرفق والتدريج، حتى ينفذوا بإرادتهم ما يريده منهم دون لجوء إلى السيف، وما أروع كلمته: «لا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف»!

* * *

(15) رواها ابن الجوزي في كتابه عن عمر بن عبد العزيز (ص301، 302) ط. دار الكتب العلمية –بيروت.

زهده رضي الله عنه وشدته مع نفسه وأهله

وكان من سياسته ما أعلنه حين جمع رؤوس الناس فخطبهم فقال: «إن فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث أراه الله، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك.. ثم إن مروان أقطعها فحصل لي منها نصيب، ووهبني الوليد وسليمان نصيبيهما، ولم يكن من مالي شيء أرده أغلى منها. وقد رددتها في بيت المال على ما كانت عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم »، فيئس الناس من المظالم عند ذلك، ثم أمر بأموال جماعة من بني أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم، فاستشفعوا إليه بالناس، وتوسلوا إليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجع فيه شيء، وقال لهم: «لتدعني وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به»، وقال: «والله لو أقمت فيكم خمسين عاما ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل، وإني لأريد الأمر فما أنفذه إلا مع طمع من الدنياحتى تسكن قلوبكم، فإذا نفرت قلوبهم من هذا سكنت إلى هذا».

إذا أراد أن ينفذ أمرا من أوامر الحق والعدل التي فيها مشقة على النفوس جعل معها شيئا يستريح إليه الناس وهذا من حسن سياسته رضي الله عنه.

وكان شديدا على نفسه، شديدا على أهله، شديدا على أقربائه، شديدا على ولاته. كان شديدا على نفسه حتى إنه لم يسمح لنفسه أن يشم ريح عنبرة جاءت إلى بيت المال فوضع يده على أنفه، فقيل له: «يا أمير المؤمنين إنها تشم»! قال: «وهل لها فائدة إلا الشم»؟!.

وبعث يوما غلامه ليشوي لـه لحمـا فجـاءه بـه سريعا فقـال: «أين شويته؟» قال الغلام: «في المطبخ»، فقـال: «فـي مطـبخ المسلمين؟» قـال: «نعم»، فقـال عمر: «كلها فإني لم أرزقها، هي رزقك!».

وسخنوا له الماء في المطبخ العام، فرد بدل ذلك بدرهم حطبا[16]. وكـان رضي الله عنه له سراج يكتب عليه حوائجه، وسراج لبيت المـال يكتـب عليـه مصالح المسلمين، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفا.

فانظروا كيف بلغ تورعه وكيف بلغت عفتـه، هكذا أيهـا الأخوة كـان يأخذ نفسه بالشدة.

اشتهى يوما عنبا فسأل امرأته أن تقرضه درهما أو فلوسا –أجزاء الدرهم- يشتري بها عنبا، فلم يجد عندها شيئا، فقالت لـه: «أنـت أمير المؤمنين ولـيس فـي خزانتك مـا تشتري بـه عنبـا؟!!» فقـال: «هـذا أيسر مـن معالجـة الأغـلال والأنكال في نار جهنم»[17].

وحينما ولي الخلافة خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه علـى أنـه لا فـراغ لـه إليهـا، وبـين أن تلحـق بأهلهـا، فبكـت وبكـت جواريهـا لبكائهـا، واختـارت مقامها معه على كل حال. رحمها الله.

* * *

---

(16) انظر: ابن الجوزي «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (ص191) وما بعدها.

(17) ابن الجوزي «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز» (ص183).

استشعاره رحمه الله عظم المسؤولية

إنه رجل يشعر بالمسؤولية، قالت زوجته فاطمة: «دخلت يوما عليه وهو جالس في مصلاه واضعا خده على يده ودموعه تسيل على خديه فقلت: مالك؟» فقال: «ويحك يا فاطمة قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد. فعلمت أن ربي ززز سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فخشيت أن لا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت»[18].

هكذا رأى نفسه مسؤولا، ومن أول يوم دخل عليه مولاه فقال: «مالك هكذا مغتما مهموما وليس هذا بوقت هذا؟» فقال: «ويحك وما لي لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه، كتب إلي في ذلك أو لم يكتب، طلبه مني أو لم يطلب».

هذه هي المسؤولية، كان عمر بن عبد العزيز شديدا على نفسه شديدا على أهله، لم تأخذ امرأته منه شيئا ولا أولاده أخذوا منه شيئا، حكوا أن أحد أبنائه أو أقربائه اشترى فصا بألف درهم، فكتب إليه يقول: «أما بعد فقد بلغني أنك اشتريت فصا بألف درهم، فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأطعم بثمنه ألف جائع، واشتر فصا من حديد واكتب عليه: رحم الله امرءا عرف قدر نفسه!».

(18) لتمام الفائدة انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (226/9).

ولذلك لا ينبغي أن يكون المال العام كلأ مباحا لأولاد الخلفاء والأمراء والرؤساء وأقاربهم بل ينبغي أن يعمل فيه بعمل عمر بن عبد العزيز مع أولاده وأقاربه، إذ كان قويا عليهم كما كان قويا على نفسه وعلى عماله وولاته، ومنعهم من الإثراء على حساب الناس، ومنعهم أن يجمعوا الثروات من حرام من هنا وهناك باسم الهدايا ونحو ذلك.أهدى إليه رجل من أهل بيته تفاحا فاشتمه ثم رده مع الرسول وقال له: «قل له: قد بلغت محلها» فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية، وهذا رجل من أهل بيتك»، فقال: «إن الهدية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية، فأما نحن فهي لنا رشوة».

رفض الرشوة المقنعة وكان حازما في ذلك، وأخذ عماله وولاته في الأقاليم بهذا الحزم، ومع هذا رفع من أعطياتهم حتى لا يحتاجوا إلى أن يمدوا أيديهم إلى مال الغير، أعطاهم كفايتهم بالمعروف ووسع عليهم، فأعطى الرجل منهم في الشهر مئة دينار، ومئتي دينار، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين، فقالوا له: «لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك؟» فقال: «لا أمنعهم حقا لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم»، وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفا كثيرا من قبل ذلك.

وقد اجتهد رحمه الله في مدة ولايته على قصرها حتى رد المظالم ونفذ أحكام الإسلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وصرف إلى كل ذي حق حقه، وكان مناديه في كل يوم ينادي: أين الغارمون؟ أين الناكحون –أي الذين يريدون الزواج والنكاح- أين المساكين؟ أين اليتامى؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء.

وكتب إليه أحدهم يقول: «يا أمير المؤمنين! إنا نجد الرجل عنده البيت يكفيه، وعنده الفرس يركبه، وعنده السلاح، وعنده الأثاث في بيته، ومع ذلك فهو غارم، أنعطيه من الصدقة من بيت المال؟» قال: «نعم لا بد للمسلم من بيت يسكنه، ولا بد له من فرس يجاهد عليه، ولا بد له من سلاح يقاتل به، ولا بد له من أثاث في بيته، أعطوه فإنه غارم!».

أرسل إلى بعضهم: إذا كان عندك فضل مال بعد أن أعطيت الجند، فاقض عمن عليه دين ولم يستطع الوفاء له، ومن تزوج ولم يقدر على نقد «يعني: أن يدفع الصداق» ففعل وقال: «بقيت عندي أموال يا أمير المؤمنين؟» قال: «اقض بها الديون».

وبعث إليه واليه على إفريقية «تونس وما حولها» يحيى ابن سعيد يقول: «يا أمير المؤمنين تجمعت عندي أموال من الصدقات، فبحثت عن فقراء يستحقون الزكاة فلم أجد؟» فأرسل إليه يقول: «اشتر بها رقابا فأعتقها!» هكذا أغنى الله الناس بالخير والعدل، فلم يعد يوجد فقراء يستحقون الزكاة، وتحولت حصيلة الزكاة إلى تحرير الرقيق، يشتري بها العبيد والجواري لتعتق رقابها من مال الزكاة، فلم يبدأ تحرير العبيد في أمريكا كما يزعم الزاعمون.

وقال أحدهم: «إنما ولي عمر بن عبد العزيز ثلاثين شهرا[19]»، والله ما ولى حتى كان الرجل يأتيه المال العظيم فيبحث عمن يقبل صدقته فلا يجده،

---

(19) أكثر الروايات في كتب التاريخ على أن خلافته رحمه الله كانت نحوا من خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه أي أنها سنتان وخمسة أشهر وأربعة أيام أو تزيد أياما قليلة، انظر: ابن الجوزي (ص327، 328)، وكذلك ابن كثير في «البداية والنهاية» والسيوطي وغيرهم كثير.

فيعود وماله في يده؛ لأن الله قد أغنى الناس بعمر.

* * *

عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة وبعدها

هذا هو عمر بن عبد العزيز الذي كان يقول قبل الخلافة: «لقد خفت أن يعجز ما قسم الله لي عن كسوتي، وما لبست ثوبا قط فرآه الناس علي إلا خيل لي أنه قد بلى»، ثم لما ولي الخلافة خرج من ذلك كله وشاهده الناس بعد أن صلى الجمعة وجلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه، فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست!؟» فنكس مليا ثم رفع رأسه فقال: «إن أفضل القصد عند الجدة، وأفضل العفو عند المقدرة».

كان قبل الخلافة إذا جيء له بثوب يلمسه بيديه ويقول: «ما أحسنه لولا خشونة فيه»، فلما ولي الخلافة كان يشتري له الثوب بدرهم أو درهمين، فيلمسه ويقول: «ما أحسنه لولا نعومة فيه»[20]، ودخل عليه صهره مسلمة بن عبد الملك يعوده في مرضه فإذا عليه قميص وسخ فقال لأخته فاطمة زوجة عمر: «يا فاطمة اغسلي قميص أمير المؤمنين»، قالت: «نفعل إن شاء الله»، ثم غدا فإذا القميص على حاله، فقال: «يا فاطمة ألم آمركم أن تغسلوا قميص أمير المؤمنين؟ فإن الناس يعودونه»، قالت: «والله ما له قميص غيره».

---

(20) في «وفيات الأعيان» لابن خلكان (103/2)، قال رجاء بن حيوة وزيره ومستشاره: أمرني عمر بن عبد العزيز أن أشتري له ثوبا بستة دراهم، فأتيته به فجسه وقال: هو على ما أحب لولا أن فيه لينا، قال: فبكيت، قال عمر: فما يبكيك؟ قال: أتيتك وأنت أمير بثوب بستمئة درهم فجسسته وقلت:هو على ما أحب لولا أن فيه خشونة، وأتيتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستة دراهم فقلت ما قلت!! فقال: يا رجاء إن لي نفسا تواقة تاقت إلى فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، وتاقت إلى الإمارة فوليتها، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها، وقد تاقت إلى الجنة فأرجو أن أدركها إن شاء الله ززز.

هكذا كان عمر بن عبد العزيز، قميص واحد مرقوع لا يغيره، وإذا غسله بقي في البيت حتى يجف الثوب، ماذا نقول في هذا النموذج الرفيع العالي من نماذج التعفف والزهد، يتعفف ويزهد ولا يأخذ من متاع الدنيا بعض ما يأخذه الناس، ويتوق إلى منزلة عالية رفيعة هي الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وكان يخدم نفسه بنفسه ويقول: «ما تركت شيئا من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه»، وكان يأكل الغليظ ولا يبالي بشيء من النعيم، حتى قيل: كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرني؛ لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها، ولا ندري حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون؟ فليس من جرب كمن لم يجرب، وقال مالك بن دينار: «يقولون مالك زاهد، أي زهد عندي؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة!».

وكما يحدث مع الأئمة والصالحين أن يوجد من يظن بهم السوء، فقد حدث هذا مع عمر بن عبد العزيز بعد موته رحمه الله، إذ جاء عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين إن هذا المرائي – يعني: عمر بن عبد العزيز- قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس، ودر ثمين في بيتين في داره مملوئين، وهما مقفولان على ذلك الدر والجوهر»، فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك يقول: «بلغني أن عمر خلف جوهرا ودرا في بيتين مقفولين»، فأرسلت إليه: «يا أخي ما ترك عمر من سبد ولا لبد[21]، إلا ما في هذا المنديل، وأرسلت إليه به»، فحله

(21) سبد ولبد بمعنى: شعر وصوف، والمراد ما ترك عمر من قليل ولا كثير، انظر: «المعجم الوسيط» (845/2).

فوجد فيه قميصا غليظا مرقوعا ورداء قشبا، وجبة محشوة غليظة واهية البطانة، فقال يزيد للرسول: «قل لها ليس عن هذا أسأل ولا هذا أريد، إنما أسأل عما في البيتين»، فأرسلت تقول له: «والذي فجعني بأمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولي الخلافة لعلمي بكراهته لذلك، وهذه مفاتيحهما فتعال فحول ما فيهما لبيت مالك»، فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار، ففتح أحد البيتين فإذا فيه كرسي من أدم وأربع آجرات مبسوطات عند الكرسي وقمقم، فقال عمر بن الوليد: «أستغفر الله»، ثم فتح البيت الثاني فوجد فيه مسجدا مفروشا بالحصا، وسلسلة معلقة بسقف البيت، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الإنسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها في رقبته، ووجدوا صندوقا مقفلا ففتحه فوجدوا فيه سفطا ففتحه فإذا فيه دراعة وتبان، كل ذلك من مسوح غليظ، فبكى يزيد ومن معه وقال: «يرحمك الله يا أخي إن كنت لنقي السريرة، نقي العلانية»، وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول يقول: «أستغفر الله إنما قلت ما قيل لي»[22].

* * *

(22) القصة بطولها ذكرها ابن كثير في: «البداية والنهاية» (9/240، 241)، ومعنى السفط وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها، والدراعة ثوب من صوف أو جبة مشقوقة المقدم، أما التبان فهي سراويل قصيرة إلى الركبة أو ما فوقها تستر العورة.

مع أولاده رضي الله عنه

كان أولاده من أقل أولاد الناس مالا، فقيل له: «هؤلاء بنوك -وكانوا اثنى عشر- ألا توصي لهم بشيء فإنهم فقراء؟»، فقال: «{**إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ**} [الأعراف: 196]، والله لا أعطيهم حق أحد وهم بين رجلين: إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه»، أو قال: «فلا أبالي في أي واد هلك»، وفي رواية قال: «أفأدع له ما يستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت؟ ما كنت لأفعل»، ثم أوصى أولاده بهذا الكلام وقال: «انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم»، وهكذا تكون الوصية، وقد عمل بها الأبناء حتى كانوا من أغنى الناس، إلى درجة أن بعض أولاد عمر بن عبد العزيز كان يحمل على ثمانين فرس في سبيل الله، وكان أولاد -أو بعض أولاد- سليمان بن عبد الملك- مع كثرة ما ترك لهم من الأموال- يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، وذلك لأن عمر وكل ولده إلى الله ززز، وسليمان وغيره إنما وكلوا أولادهم إلى ما يدعون لهم من أموال فضاعت الأموال في الشهوات ولم يبق إلا الفقر، وهكذا ترك عمر اولاده وليس لهم شيء ولكنهم كانوا بعد ذلك من أغنى الناس، أغناهم الله بالحلال، ولم ينلهم أذى من بني العباس حين زال ملك بني أمية.

* * *

مع بطانته ورعيته

عمر بن عبد العزيز كان نموذجا رفيعا من النماذج الإسلامية التي صنعها الإسلام، صنع الإسلام هذا النموذج فأقام الحق وأرسى دعائم العدل ورد الأمانات إلى أهلها، وأعطى كل ذي حق حقه ولم يبال ما أصابه في سبيل الله، استعان بأهل الفقه والدين ولم يستعن بخبيث ولا شرير، فالبطانة السيئة هي التي توجه الملوك والخلفاء والأمراء إلى الجحيم والعياذ بالله، والبطانة الطيبة هي التي توجههم إلى طاعة الله ززز، كتب عمر إلى سالم بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب يقول: «أما بعد فإن الله تبارك وتعالى ابتلاني بما ابتلاني به من أمركم من غير مشورة مني فيه ولا طلب، إلا قضاء من الرحمن الرحيم، فأسأل الذي ابتلاني بما ابتلاني به من أمر عباده وبلاده أن يحسن عوني وعاقبتي، وعاقبة من ولاني أمره، وقد رأيت أن أسير في الناس بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن قضى الله ذلك واستطعت إليه سبيلا، فابعث إلي بكتب عمر وقضائه في أهل القبلة، وأهل العهد، فإني متبع أثره، وسائر بسيرته إن شاء الله تعالى، وأسأل الله التوفيق لما يحب ويرضى».

فأجابه سالم: «كتبت إلي تسألني أن أبعث إليك بكتب عمر وبقضائه في أهل القبلة وفي أهل العهد، وإن عمر رضي الله عنه عمل في غير زمانك، وعمل بغير رجالك، وإنك إن عملت في زمانك على النحو الذي عمل عمر بن الخطاب في زمانه، بعد الذي رأيت وبلوت، رجوت أن تكون أفضل عند الله منزلة من عمر بن الخطاب، فقل كما قال العبد الصالح {**وَمَا تَوْفِيقِيَ إِلَّا**

بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ} [هود: 88]»[23].

كان هذا دأبه منذ أن ولي الخلافة ومن أول دخوله فيها واستمر على هذا حتى لقي الله ززز، بعث إليه واليه في مصر يشكو إليه من كثرة دخول الناس في الإسلام، وكان الولاة منذ زمن يفرضون الجزية على من أسلم، والأصل أن من أسلم تسقط عنه الجزية، ولكن الولاة وجدوا أن كثرة الداخلين في الإسلام تؤثر على ميزانية الدولة العامة وتقلل مواردها بعد أن تسقط عنهم الجزية، ولا تجب عليهم الزكاة إلا بعد حول، فكان الولاة يفرضون الجزية حتى على من دخل الإسلام، فبعث عمر إلى واليه على مصر يقول:«قبح الله رأيك، إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا، ولم يبعثه جابيا، مهمة الدولة الإسلامية هي الهداية وليست الجباية، ليست جمع الأموال وتكديسها في الخزائن، إنما مهمتها هداية الناس فمن دخل في الإسلام فلا جزية عليه».

أقام عمر بن عبد العزيز العدل مع المسلمين ومع غير المسلمين حتى إنه كتب إلى واليه على البصرة أن يضرب لفقراء أهل الذمة من بيت مال المسلمين ما يكفيهم وأهليهم، واستدل على ذلك بقصة عمر بن الخطاب مع اليهودي الذي كان يسأل الناس فقال له عمر ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية شابا وأهملناك شيخا، افرضوا له ولضربائه من بيت مال المسلمين ما يكفيهم.

وأرسل إليه بعض عماله يقول: «إن مدينتنا قد خربت، فإن ير أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالا نرمها به فعل»، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز:

---

(23) أورد ابن الجوزي موعظة سالم لعمر بن عبد العزيز كاملة بروايات متعددة في كتابه «سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز»، فانظر هناك (ص149) وما بعدها، ط. دار الكتب العلمية –بيروت.

«حصن مدينتك بالعدل، ونق طرقها من الظلم فإنه مرمتها والسلام».

وقد علق على هذا الكاتب الذي ذكرت فقال: «لو كان هذا في بلد ديمقراطي لحوكم من أجل هذا الأمر!» وهذا يدل على أن هذا الكاتب لم يفهم مقصد عمر بن عبد العزيز أن المدن لا تحميها الأسوار إنما يحميها العدل، اعدل بين الناس تراهم يحمون المدن، أما إذا ظلمتهم وجرت عليهم ولم تعط أصحاب الحقوق حقوقهم فإن الأسوار لا تغني، ولن يدافع الناس عن مدينة يعيشون فيها مظلومين ويرون الامتيازات لغيرهم، ولماذا يدافعون عنها وهم فيها كالموتى وليس لهم حق فيها ولا حرمة؟!، لكن العدل بينهم يجعلهم سورا بشريا يحمي المدن من المغيرين عليها والمعتدين عليها.

هكذا أيها الإخوة كان عمر بن عبد العزيز في سياسته المالية، وفي سياسته الحكيمة، وفي سياسته الدعوية، وفي سياسته التربوية، قال له بعض الناس يوما: «جزاك الله عن الإسلام خيرا يا أمير المؤمنين»، فقال: «بل جزي الله الإسلام عني خيرا فما أبلغه وما أصدقه».

* * *

وفاته رضي الله عنه

ولم يصبر على عدله وحكمه الكائدون والمتآمرون، فسقوه السم ليتخلصوا منه، سقاه بنو أمية بعد أن وجدوه يتنكر لهم، ويرد أموالهم إلى بيت المال بالقسطاس والعدل، وقد عرف يوم شرب السم، وعرف الغلام الذي سقاه فاستدعاه وقال له: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال: «ألف دينار أعطيتها»، فقال عمر: «هاتها فأحضرها فوضعها في بيت المال»، ثم قال له: «اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك».

ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة ونصف(24)، ولكنه في هذه السنين القليلة غير الحياة، أحدث انقلابا هائلا في الحياة الاجتماعية والسياسية مما يدل على أن هذا الدين إنما يحتاج إلى قيادة مؤمنة مصممة تختار أعوانها من المؤمنين الصالحين قيادة على فقه في هذا الدين وعلى إيمان بعدل الله ززز، وتصميم على إقامته في الأرض، أسأل الله تبارك وتعالى أن يرضى عن عمر ابن عبد العزيز، وأن يجعل منه أسوة لحكامنا وأمرائنا في البلاد الإسلامية، وأن يجعل من سيرته عبرة لكل مؤمن، وأقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم..

* * *

---

(24) تراوح الروايات في عمره حين توفي رحمه الله بين تسع وثلاثين وأشهر إلى أربعين، وانفرد ابن الجوزي برواية عن معمر ذكر فيها أن عمر مات على رأس خمس وأربعين، انظر: ابن الجوزي (ص327، 328).

فتوى للشيخ يوسف القرضاوي

خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز

هل كان جاهلًا بالسياسة؟

س: لقد قرأنا في كتب التاريخ، وفي كتب التربية الإسلامية وغيرها: أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي من أعظم حكام المسلمين عدلاً وفضلا وفقهًا وحسن سياسة، حتى وصف بأنه «الخليفة الراشد»، واعتبره الكثيرون من المؤرخين والعلماء «خامس الراشدين».

ولكننا فوجئنا بكاتب علماني منتفش مغرور يكتب في بعض المجلات التي تبنَّت كل ما يعادي الإسلام ودعوته، يهاجم عمر بن عبد العزيز بما لم يهاجمه به أحد قط فيما نعلم.

ولا بد أنكم اطلعتم على ذلك فيما كتبه حسين أحمد أمين، الذي لا ندري لحساب من يسوِّد هذه الصحائف، ومن المستفيد من وراء تشويه كل شيء في تراثنا وتاريخنا!..

يقول هذا المتطاول الجريء:

«لم ير الأتقياء في حكم أحد من الخلفاء الأمويين ما يوافق مثلهم العليا، إلا عمر بن عبد العزيز، الذي أسهم جهله بالشئون السياسية في تدهور أحوال الدولة ثم سقوطها، وانتقال السلطة من أيدي العرب إلى الفرس!!» «مجلة المصور» القاهرة في 1983/12/9م.

وفي عدد آخر من «المصور» 1404/4/17هـ - 1984/1/19م يحمل

على الفقهاء، ثم على المؤرخين ويتهمهم بالتواطؤ على تزوير التاريخ، حتى تكونت عند الناس النظرة «الرومانسية» ـ كما سماها ـ وبات المسلمون ينظرون إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز على أنه من أعظم الخلفاء، على حين يصفه الكاتب بأنه: لم تجلب سياسته المالية والإدارية إلا خراب الدولة ثم يقول:

«وإن المسلمين لا يزالون يمصمصون شفاههم إعجابًا بموقفه من واليه على حمص الذي كتب إليه: إن مدينة حمص قد تهدم حصنها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه، فرد عليه عمر بقوله: «أما بعد، فحصنها بالعدل».

ويعقب الكاتب المتحامل على هذا قائلا: «وهذا رد رغم ما فيه من بلاغه تستهوي العرب، فإنه يستوجب المؤاخذة البرلمانية، في أي نظام حكم ديمقراطي»!.

ورجاؤنا أن تبينوا حقيقة موقف عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه، وهل لهذه الدعوى التي يدعيها الكاتب أصل أو دليل يعتمد عليه؟

وفقكم الله لرد هذا التطاول على أحد رموز الأمة، وجزاكم الله خيرًا.

ع.ص – القاهرة

جـ: لقد قرأت ما كتبه الكاتب المذكور عن عمر ابن عبد العزيز، وعن السلف الصالح، وعن الشريعة الإسلامية، ولا أدري كيف يُسمح لمثله أن يصول ويجول ويقول ما يشاء، ويحطم ما يريد، ولا يُسمح لأحد أن يرد عليه؟!.

* * *

دعوى لا أساس لها

ولا أدري على أي أساس علمي بنى هذا المتطاول الجريء دعواه العريضة، عن عمر بن عبد العزيز؟! فإن المنطق يرده، والإجماع يرفضه، وتاريخ عمر نفسه يكذبه، وآثار حكمه تنقضه.

أما المنطق، فليس من المعقول أن يكون عمر ابن عبد العزيز جاهلا بالسياسة والإدارة وهو ابن الأسرة الأموية القح أبوه عبد العزيز بن مروان، وعمه عبد الملك ابن مروان، المؤسس الثاني لدولة بني أمية.

وأبناء عمومته الخلفاء: الوليد وهشام وسليمان ويزيد، وهم أصهاره كذلك، فإن فاطمة زوجته بنت عبد الملك، وهي التي قال فيها الشاعر:

بنت الخليفة، والخليفة جدها   أخت الخلائف، والخليفة زوجها

وقد كان أبوه أميرًا على مصر، وتولى هو إمارة المدينة ومكة.

فليس يُعقل ممن نشأ هذه النشأة، وتقلب في المناصب، حتى رشح لأعلى منصب في الدولة ـ الخلافة ـ أن يكون جاهلاً بالسياسة والإدارة! إلا أن يكون مجرد التدين والالتزام بالعدل والتقوى سببًا لحرمانه من الكفاية السياسية التي تمتع بها أهله وذووه جميعا!.

وأما الإجماع، فقد اتفقت الأمة كلها على أنه لم يأت بعد الخلفاء الراشدين خير من عمر بن عبد العزيز، ولهذا سموه: خامس الراشدين.

حتى العباسيون وأشياعهم حين اندفعوا أول استيلائهم على الحكم فنبشوا قبور بني أمية، لم يفكر أحد منهم في نبش قبر ابن عبد العزيز.

وأما تاريخ عمر، فهو ينطق بأنه كان سياسيًا وإداريًا من الطراز الأول.

وأنا أذكر هنا بعض الوقائع التي تدل على حنكته وحكمته السياسية، وقدرته الإدارية، وحسن فهمه للحياة وللدين معا.

رووا عن عمر بن عبد العزيز: «أن ابنه عبد الملك قال له يوما: مالك لا تنفذ الأمور؟! فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك في الحق!».

يريد الشاب التقي المتحمس من أبيه -وقد ولاه الله إمارة المؤمنين- أن يقضي على المظالم وآثار الفساد دفعة واحدة، دون تريث ولا أناة، وليكن بعد ذلك ما يكون! فماذا كان جواب الأب الصالح، والخليفة الراشد، والفقيه المجتهد؟.

«قال عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة»[25].

يريد الخليفة الراشد أن يعالج الأمور بحكمة وتدرج، مهتديًا بمنهج الله تعالى الذي حرم الخمر على عباده بالتدريج. وانظر إلى تعليله المصلحي الرصين، الذي يدل على مدى عمقه في فقه السياسة الشرعية: إني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة! ويكون من ذا فتنة!.

وروي عنه ميمون بن مهران قوله: «إني لأريد الأمر من أمر العامة - يقصد ما يتعلق بالجماهير- فأخاف ألا تحمله قلوبهم، فأخرج معه طمعًا من

(25) انظر: «الموافقات» للشاطبي (94/2).

طمع الدنيا.. فإن أنكرت قلوبهم هذا سكنت إلى هذا»[26].

يريد أن لا يصدر قرارًا من القرارات التي تمس الجمهور مما يرى أنه الحق من الأعباء والتكاليف، إلا ومعها قرارًا آخر يتضمن مصلحة دنيوية لهم، فإن أنكروا ذاك آنسوا لهذا، وهذا ما يفعله المحنكون في السياسة إلى اليوم.

ومرة أخرى، يدخل عليه ابنه المؤمن المتوقد حماسة وغيرة، ويقول عاتبًا أو غاضبًا:

«يا أمير المؤمنين، ما أنت قائل لربك غدا إذا سألك فقال: رأيت بدعة فلم تمتها، أو سنة فلم تحيها؟! فقال أبوه: رحمك الله وجزاك من ولد خيرًا! يا بني، إن قومك قد شدّوا هذا الأمر عقدة عقدة، وعروة عروة، ومتى أردت مكابرتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا علي فتقًا يكثر فيه الدماء، والله لزوال الدنيا أهون علي من أن يراق في سببي محجمة من دم! أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا، إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة؟»[27].

بهذه النظرة الواقعية العميقة كان يسوس عمر الأمور، وبهذا الأسلوب المتدرج العاقل كان يعالج الأمور الصعبة المعقدة، وبهذا المنطق القوي الرصين، أقنع الأب الراشد ابنه المتوثب المتحمس، فهل يوصف مثل هذا السياسي الحكيم بأنه جاهل بالشئون السياسية؟!!.

---

(26) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (129/5، 130)، و«البداية والنهاية» (200/9).
(27) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص223، 224).

إن هذا لا يقوله إنسان يفهم السياسة، أو يفهم الحياة، إنما يقوله من لا يملك إلا الجرأة على الدعاوى العريضة الهائلة، دون أن يقيم عليها دليلًا.

وأما ما ذكره عمر بن عبد العزيز عن سور المدينة، وقوله لواليه: حصنها بالعدل ونق طرقها من الظلم، والذي زعم الكاتب العبقري! أنه لو كان في بلد ديمقراطي لكان موضع مؤاخذة برلمانية! فالحق أن الكاتب في قوله هذا: إما غبي لم يفهم ما هو في الوضوح كالشمس، وإما فاهم يحرف الكلم عن مواضعه لهوى في نفسه.

فعمر بكلمته البليغة والحكيمة يشير إلى حقيقة اجتماعية من أعظم الحقائق، وهي أن المدن لا تحميها الأسوار المادية، وإن علت وعظمت، إنما يحميها أهلها وسكانها، ولن يفعلوا ذلك إلا إذا شعروا بأن خير هذه المدينة لهم ولذريتهم، وأنهم فيها آمنون مطمئنون، أما إذا شعروا بأن فئة محدودة هي التي تُطعَم التمر، وتتبرع لهم بالنوى، وتأكل اللحم، وتدع لهم العظم، أو أنهم فيها خائفون مهددون في أرزاقهم، أو أعراضهم، أو حرماتهم، فليس بعيدًا أن يتقاعسوا عن الدفاع عنها، ولا يبعد أن يستغل العدو هذا الموقف، فيغير عليها، وهو آمن من غضبة الجبهة الداخلية.

لهذا كانت وصية عمر للوالي أن يهتم بما يغفل عنه الولاة، وهو إقامة العدل ومحاربة الظلم، التي تحبب إلى الناس أوطانهم ومدنهم وحياتهم، وتجعلهم يتشبثون بها ويدافعون عنها بالأنفس والنفائس، فأعظم سور يحمي المدن حقًا: ما كان من البشر لا من الحجر!.

ويؤكد هذا أن الوالي كان يريد من عمر أن يقطع له مالاً لمرمة سور

المدينة كما روي ذلك الحافظ السيوطي في: «تاريخ الخلفاء»[28]، وعمر من أحرص الناس في إنفاق الأموال، فبدل أن تتجه الأموال إلى الجوانب العسكرية التي كثيرًا ما تبتلع الميزانيات، وخصوصًا عند الحكام الطامحين وأعوانهم من القادة العسكريين، يجب أن توجه إلى النواحي الاجتماعية لسد الخلل، وتحقيق الكفاية لكل محتاج.

لقد كان ابن عبد العزيز مؤمنًا كل الإيمان بأن العدل هو أساس الدولة، وسناد الحكم، وحارس الملك، وليس هو الجبروت، والقوة المادية التي عامل بها بعض ولاة بني أمية الناس، دهرًا قبل عمر، واعتبروها وحدها التي تحفظ لهم الملك، ناسين أن الظلم لن تدوم دولته، وأن المظلومين لا بد أن ينتفضوا يومًا ما.

ومن هنا كان رد عمر على ولاته -الذين اقترحوا عليه أن يسيروا في ولاياتهم على سنة من كان قبله من العسف والإرهاب- هو الرفض والإنكار والتنديد.

ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء ما أخرجه ابن عساكر عن السائب: «كتب الجراح بن عبد الله إلى عمر ابن عبد العزيز: إن أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك، فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رعيتهم، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، والسلام»[29].

---

(28) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص 216).

(29) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص225).

وقد دلت الوقائع أن فلسفة عمر في الحكم، أصوب من فلسفة من سبقه من المتجبرين، وأن سياسته آتت أكلها دون حاجة إلى الخروج عن أحكام الشريعة وحدودها.

قال يحيى الغساني من ولاة عمر: «لما ولاني عمر ابن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبًا. فكتبت إليه أعلمه حال البلد وأسأله: آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة، أو آخذهم بالبينة، وما جرت عليه السنة؟ فكتب إلي: أن آخذ الناس بالبينة، وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق، فلا أصلحهم الله! قال يحيى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد، وأقلها سرقة ونقبًا»[30].

وكان من حسن سياسته: أنه يوسع على عماله «ولاته» في النفقة، يعطي الرجل منهم في الشهر مئة دينار، ومئتي دينار، وكانت حجته أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين.

وقد قيل له يومًا: لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك؟ فقال: لا أمنعهم حقًا لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم[31].

ومن سياساته الاقتصادية الرشيدة ما رواه أبو عبيد في «الأموال»: أنه كتب إلى واليه عبد الحميد بن عبد الرحمن -وهو بالعراق- «أن أخرج للناس أعطياتهم، فكتب إليه عبد الحميد: إني قد أخرجت للناس أعطياتهم، وقد بقي في بيت المال مال! فكتب إليه: أن انظر كل من ادّان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه، فكتب إليه واليه: إني قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال

(30) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي (ص221).
(31) «البداية والنهاية» لابن كثير (203/9).

المسلمين مال! فكتب إليه: أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه، وأصدق عنه فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت، وقد بقي في بيت المال مال! فكتب إليه عمر: أن انظر من كانت عليه جزية، فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا عامين»[32].

وقال يحيى بن سعيد: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد فقيرًا، ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز الناس»[33].

ولا غرو أن أجمع علماء الأمة من فقهاء ومتكلمين، ومحدثين وصوفية، ومؤرخين، على فضل عمر ابن عبد العزيز، وإعطائه مكانًا بارزًا في التاريخ الإسلامي وسير رجاله المصلحين.

وحينما شرحوا الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبو داود وغيره: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها**»، وأرادوا أن يطبقوه على الواقع التاريخي، أجمعوا على أن عمر هو مجدد المئة الأولى، كما ذكر ذلك الحافظ السيوطي في منظومته عن المجددين. قال:

فكان عند المئة الأولى عمر خليفة العدل بإجماع وقر[34]

وأما الواقعة التي اعتمد عليها الكاتب في اتهامه لعمر بسوء الإدارة، والتي اعتبرها كافية في تقديم الخليفة الراشد للمحاكمة بتهمة تخريب الدولة! فإنه –

(32) «الأموال» لأبي عبيد. بتحقيق: هراس (ص357، 358).

(33) «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم (ص59).

(34) انظر: «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للمناوي (11/1).

للأسف- لم يفقه معناها، ولم يدرك حقيقة مغزاها.

إن عمر حين قال لواليه في شأن سور المدينة: «حصنها بالعدل»، أراد أن يوجهه ويوجه أمثاله من الولاة إلى أمر عظيم لا يدرك سره الخطافون المتعجلون المتغطرسون. هذا الأمر العظيم: أن البلاد لا يحصنها من الغزوات الخارجية، ولا يحميها من الفتن الداخلية، مجرد إقامة الأسوار والتحصينات المادية، إنما يحميها ويحصنها قبل كل شيء إقامة العدل في ربوعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، ومحاربة المظالم، وردها إلى أهلها، فهذا هو الذي يجعل من أبنائها سورًا حقيقيًا لحراستها ويجعل من كل منهم درعًا لحمايتها.

أما إذا فقد العدل فمجرد الأسوار لا تحميها، وأهلها لا يبالون بسقوطها كما حكى تاريخ الجاهلية عن عنترة العبسي الذي وقف يتفرج على قبيلته، وهي تهزم أمام عينيه، وهو لا يحرك ساكنًا؛ لأنهم ظلموه، واعتبروه عبدًا يرعى الجمال! وقال في ذلك لأبيه حين طلب إليه أن يكر مع قومه: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر!.

ولا يعني رد عمر -لمن يتذوق معاني الكلام ويفقه مراميه- أن تهمل أسوار المدن وتحصينات البلاد، ولكنه أراد أن ينبههم إلى ما غفلوا عنه، ولكل مقام مقال.

ومن العجب العاجب أن الكاتب الذي صوب سهام النقد والإنكار إلى عمر بن عبد العزيز يكيل المديح والإطراء إلى الحجاج بن يوسف الثقفي، طاغية بني أمية!.

يقول: قد تكونت صورة شوهاء من الصعب تغييرها عن الحجاج بن يوسف.. لمجرد قسوته في استئصال شأفة المارقين الخارجين على الدولة، وهو الذي شهد له المؤرخون الأوربيون بأنه أحد أعظم الإداريين في تاريخ العالم.

هنا يكشف لنا الكاتب عن المؤثرات الموجهة لتفكيره وتكوين رأيه: ما يقوله الأوربيون والمستشرقون! فإذا شهد هؤلاء للحجاج، فلنضرب عرض الحائط بشهادة المؤرخين والفقهاء وجمهور العلماء!.

والغريب أن يقول هذا من يريد أن يسوق عمر بن عبد العزيز إلى قفص الاتهام باسم الديمقراطية، فأين الديمقراطية من سلوك الحجاج، الذي كان يحبس بالظنة، ويقتل بالشبهة، ولا يبالي بسفك الدماء، وظلْم الأبرياء، في سبيل توطيد الملك لبني أمية حتى قالوا: إنه قهر العرب وأذلهم، فمهد الطريق لظهور الفرس، وغيرهم من العناصر الأعجمية.

والحجة التي ساقها الكاتب «الديمقراطي» لتبرير طغيان الحجاج وقسوته هي نفس الحجة التي يسوقها الطغاة والجبابرة المستبدون في كل زمان، فكم رأينا في عصرنا من برآء سجنوا، وكم من شهداء سقطوا، وكم من دماء سفكت، وحرمات انتهكت، وأموال صودرت، وأسر شردت، وجلود شويت بالسياط، وأجساد شوهت بالتعذيب، ومدن دمرت على أهلها، وأطفال زغب الحواصل فقدوا الآباء والأمهات معًا، وعذارى اعتدى عليهن في سجون الطغاة.. كل ذلك تم تحت مظلة الحفاظ على «أمن الدولة»، «واستئصال شأفة المارقين الخارجين عليها».

وانظر إلى الكاتب الذي نصب نفسه محاميًا عن قسوة الطغاة، كيف نضحت ألفاظه بما في نفسه. إنه يسمي مثل عبد الله بن الزبير الصحابي[35] العالم الفارس المجاهد أحد العبادلة الأربعة، والذي بويع بالخلافة، ونودي بأمير المؤمنين، تسع سنوات، وكاد الأمر يستتب له لولا ما قدر الله، يسميه «مارقًا!»، ويسمي من كان معه من الصحابة والتابعين «مارقين».

ويسمي سعيد بن جبير وغيره من الفقهاء الذين ثاروا مع ابن الأشعث على بطش الحجاج وأمثاله «مارقين»!.

إن الكاتب - وهو خريج حقوق - نصب نفسه ممثل الاتهام لخصوم الحجاج ومعارضيه، وهو يذكرنا بممثلي الاتهام اليوم الذين شاهدنا الكثير منهم ينادون بقطع الرقاب، وتوقيع أقصى العقوبة لكل فرد أو حركة أو جماعة تقول للحاكم: «لم؟» أو «لا».

والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

* * *

(35) هو الوحيد الذي قيل فيه: هو صحابي، وأبوه صحابي، وأمه صحابية، وجده لأمه صحابي، وأبو جده صحابي، فأبوه حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين: الزبير بن العوام، وأمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر، وجده أبو بكر، وأبو جده أبو قحافة، رضي الله عنهت جميعًا.